الدكتور زكى على
خمسون عامًا فى الدعوة إلى الإسلام فى الغرب

بقلم: الأستاذ أنور الجندى

□ يقول الدكتور زكى فى مقدمة كتابه (الإسلام فى العالم) المطبوع فى لاهور ١٩٣٨م باللغة الإنجليزية ، فى مكتبة الشيخ محمد أشرف فى سوق كاشميرى ، (والذى أعيد طبعه فى الستينيات مرة أخرى) :

« فى عام ١٩٣١م غادرت مصر إلى أوربا لأول مرة فى بعثة طبية وقد كنت موظفا كطبيب امتياز ، وطبيب تخدير فى مستشفى قصر العينى بالقاهرة ، ولم أكن أتوقع أنه ستلح على رغبة عنيفة لمسائل أخرى غير الطب ، غير أنى اكتشفت أن فى أوربا جهلا مطبقا ، وعدم إدراك للاسلام ، ذلك الدين الذى أومن به ، وألفيت أن العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامى فى حالة من المرض الشديد ، تستلزم بحث أسبابها ومعالجتها » .

□ منذ ذلك التاريخ والدكتور زكى على مقيم بين النمسا وسويسرا ، وهو فى جنيف منذ سكنها الأمير شكيب أرسلان ، وكان ساعده الأيمن فى خطته لخدمة قضايا العرب والمسلمين فى الغرب ، وكان ثالثهم على الغاياتى صاحب جريدة « منبر الشرق » .

وقد أقام الدكتور زكى على منذ ذلك الحين ومازال ـ أطال الله بقاءه ـ يحمل قلمه فى سبيل الدعوة إلى الله ، ولقد كان كتابه « الاسلام فى العالم » هو دعامة عمله ، فقد كتبه باللغة الانجليزية ، ونشره فى آفاق البلاد الهندية والاسلامية ، رغبة فى توصيل هذه الحقائق إلى المسلمين من غير العرب ، ولم يتوقف عمله عند هذا الحد ، بل إنه حرر الرسائل ، وكتب الفصول الضافية ، وأذاع فى إذاعات

الغرب الكثير عن الحضارة الاسلامية وما قدمته للبشرية وخاصة فى ميدانه الأصيل ميدان الطب ، وقدم الاسلام للكثير من الذين دخلوا فيه مثل (الدكتور عبدالكريم جرمانوس) ، وكان من أصدقائه من الغربيين الذين دخلوا الاسلام (الدكتور خالد شلدريك) ، وصحفى مسلم كبير فى النمسا الآن ، زار البلاد العربية منذ سنوات ، وإذا تصفحت الدوريات فى الثلاثينيات والأربعينيات وجدت له إنتاجا وافرا فى صحيفة البلاغ المصرية والرسالة والفتح ٠

يقول العلامة محمد لطفى جمعه (مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٨م) فى التعريف بكتابه (الاسلام فى العالم) « لم يضع كاتب حديث ولا قديم بلغة غير لغته كتابا على هذا النمط العالى كما صنع الدكتور زكى على ، نزيل جنيف ، وخادم العلم والوطن والملة ، وإذا كان هذا الرجل الفذ لايزال فى منتصف العقد الرابع ، كما علمنا من بعض عارفيه الثقات فلا يعلم إلا الله ما يصل إليه بعد عشرين سنة من الدرس والتحصيل والتنقيب والتأليف ، فهو يمتاز بالصدق والأمانة فى النقل ، كما يظهر ذلك جليا فى الفصلين اللذين عقدهما لحضارة الاسلام ، ولتوسع الاسلام وامتداد نفوذه ، ويمتاز بخلة ثانية نفيسة ، وهى قدرته على سرعة الالمام بحقائق العلم ووقائع التاريخ ، وسهولة هضمها ، وصياغتها فى أفضل قالب وأبلغه وأوضحه ٠

وقد سبق له أن كتب عن الطب فى الاسلام ، وذكر من نبغوا من أطباء العرب ، فى مصر والشام والعراق والأندلس ، وعواصمها : القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة وطليطلة ، ولم تكن مراجع الطبيب المؤلف مقصورة على ما كتبه العرب أمثال ابن أبى أصيبعة (جمال الدين) فى معاجم العلماء (عيون الأنباء) الخ ٠ ولكنه رجع إلى مدونات مخطوطة ومحفوظة فى مكاتب اكسفورد وباريس ومرسيليا ومدريد وسالرمو ، وغيرها من مراكز الحضارة التى أفادت من علوم العرب فى القرون الوسطى ، وذكر أن كثيرين من علماء أوربا سواء فى انجلترا أو ايطاليا أو فرنسا تركوا أوطانهم ، وهاجروا إلى الأندلس ، ليتعلموا اللغة العربية ويحذقوا علوم العرب ، التى كانت شائعة كالطب والرياضيات والكيمياء واللوغاريتم (وأصل الاسم نسبة الى الخوارزمى) ولم يهمل الاستفادة من مصادر قديمة محترمة مثل لويس فيارددت وكوسان وبرسيفال وسيديو ، فمن العلماء الافرنج الذين نزحوا إلى بلاد الأندلس ليتعلموا على العرب نيروس الفونسى (١٠٦٢) فتخرج فى الطب على أيدى العرب ، وعاد إلى انجلترا فعينه الملك هنرى الأول طبيبا ، ثم تلاه ابن بلارو الحمامى » ٠

إن الدكتور زكى على مؤلف كتاب « الاسلام فى العالم » لم يرم إلى تمجيد الاسلام وحسب ،بل رمى إلى حل مشاكله المعاصرة ، فقد شرح النضال الحامى بين الشرق والغرب ، فى فصل ممتع ، ألم فيه بكل ما يهم العرب أن يعرفوه عن تاريخ النزاع بينهم وبين أوربا المجتاحة الغاصبة ٠

وفى الحق أن هذا النضال من أغرب حوادث التاريخ الحديث ، فإن آسيا وأفريقية إذا صح التشبيه : تزاوجا وأنتجا فتاة طائشة قاسية هى أوربا ، تلك القارة الغشوم الطامعة التى قابلت والديها بنكران الجميل والجحود المطلق ٠

فهذه آسيا قد قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة فى المجد والتقدم ، كالحضارة الأكادية والشمرية والبابلية ، والأشورية واليمنية والهندية والصينية ، كما قدمت للانسانية جميع الأديان المشهورة ، وأبرزت آسيا العلوم والفنون والآداب ٠

وفى أفريقيا قامت حضارة بذت سائر الحضارات ، هذه أفريقيا ـ وفضلها على العالم ـ التى اجتاحتها أوربا ، ووصفتها بأنها القارة السوداء ، واقتسمتها فيما بينها كالغنيمة الباردة ٠

وكان أعظم الكيد والغيظ ، والحقد الذى يغلى فى صدور أوربا ، هو ما أفرغته ضد العرب والاسلام ، منذ الحروب الصليبية إلى وقتنا هذا ٠

وهكذا أضاف الدكتور زكى على إلى الأدب العالمى والبحث التاريخى ثروة جديدة بهذا الكتاب النادر الثمين ٠

وبعد فقد قدم الدكتور زكى على فى كتابه « الاسلام فى العالم » مفهوم الاسلام الصحيح للغرب بأوسع لغات الغرب انتشارا ، قدمه على نحو بارع ، حيث قدم الدعوة والرسول ، ومنهج المجتمع والدولة ، فى معرفة حقيقية لنظام الاسلام ، يقول : لابد لدراسة هذا الدين وتفهم مراميه من تفهم حياة صاحبه ، وفائدة ذلك أنه يربط القارىء بالمظاهر العامة والذاتية ، فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى حمل عبء الرسالة وأداها صادقا أمينا ، وكان فى حياته الخاصة والعامة المثل الكامل للانسان الفاضل ، والصورة الواضحة الحقة للرسول والنبى المبعوث (وما ينطق عن الهوى ٠ إن هو إلا وحى يوحى ٠ علمه شديد القوى) ٠

فالاسلام من حيث هو دين ، ونظام اجتماعى ، يربط بين الطبقات ، ويوحد بينها ، ويتجه بمراميها إلى الغاية المنشودة من الرسالة ٠

□ ويتجلى طابع الاسلام الحق وجوهره الخالص من كل زيف أو شائبة ، فى القرآن الكريم : الذى اشتمل على مبادىء القانون الاسلامى العام ، فهو قانون لدين اجتماعى مدنى ، تجارى حربى ، فقهى خلقى تشريعى سياسى ٠

وهو بعد ذلك كتاب له تأثيره الدائم فى أذهان المؤمنين ، الذين هيهات أن يتنكب بهم الطريق ، لو أنهم ثابروا على اقتفاء خطاه وأوامره ، وليس فى هذا الكتاب ما يناقض العقل ، بل إنه ليشجع الاجتهاد والتخريج ويمضى فى رسم الأيدلوجية الكاملة للاسلام ، فيتحدث عن نظام الحكومة والدولة فى الاسلام ، ويقول : إنها من النواحى الهامة فى تاريخ هذا الدين ، مما كان له أثره البعيد فى آسيا وأفريقيا ، فيتعرض للجزية ، والزكاة والخراج ، وهى الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها الحكومة فى الدول الاسلامية ٠

والجهاد حرب دينية دفاعية ، والجهاد شرعا : الحرب فى سبيل الدين ، والذب عن حياضه ، وإدخال القوم الجاحدين فى شريعته ٠

ومن ثم فان النظام الاسلامى فى غاية مجهوده أن يمد يد العون للنوع البشرى ، ليوفر له أسباب الراحة الروحية ، ويرقى به فى سبيل الكمال والسعادة ٠

وقد عرض الدكتور زكى لآراء الغربيين فى الاسلام عرضا دقيقا ، واستخلص من ثنايا كتاباتهم عن الاسلام ما يدحض كل شبهة فى نفس أحدهم ، فهو يرى أن النظام الدينى والاجتماعى فى الاسلام ليس بالضيق ، أو ما يشتم منه ريح التزمت والجمود ٠ بل إنه فى جوهره مرن ، يعمل على النهوض بالحياة الانسانية ، وقد أعلن المؤلف أنه لايستطاع الفصل بين السياسة والدين ، بل إنهما ليتعاونان معا فى ميادين الاستقلال الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ٠

كما تحدث عن حادثتى الغزو التتارى والحروب الصليبية وأثرهما على الاسلام ، وتحدث عن الصراع بين الشرق والغرب ، وقد جاء هذا التلخيص مما سجله الدكتور حسن حبشى فى بحثه القيم عن الكتاب ، هذا وقد مضى الدكتور زكى على طريقه هذا ، فكتب بعد أكثر من عشرين عاما باللغة الفرنسية كتابه الذى أحدث ضجة كبرى فى عالم الغرب « هذه الشعوب البيضاء » ٠

□ وهكذا كان الدكتور زكى على منذ هاجر فى سبيل الله إلى الغرب لغير مغنم دنيوى أو مطمح مادى ، فقد أقام يعمل فى سبيل إعلاء كلمة الاسلام ، حريصا

على إطلاع الغربيين على محاسن الاسلام ، وإطلاع أهل الاسلام على ماوصل هنالك من أبحاث ودراسات ، كما عقد مع صحبه المجاهدين عددا من المؤتمرات في سبيل التعرف بالمسلمين المقيمين في أوربا والعمل في الدفاع عن قضايا البلاد العربية والاسلام ، وعرض قضاياهم في المحافل الدولية ، وخاصة في جنيف التي كانت ولاتزال مركزا سياسيا عالميا ٠

وإذا كان الدكتور زكي علي قد عاش في الغرب خادما للدعوة الاسلامية ، فانه لم يتوقف عن مراسلة من يأنس فيهم الخير ، لتوجيه أنظارهم إلى الحقائق ٠

ومازال شأنه في ذلك شأن الأمير شكيب أرسلان ، يطالع كل ما ينشر في الغرب ويبدي وجهة نظر الاسلام فيه ، وقد حفلت مجلة الفتح التي كان يصدرها السيد محب الدين الخطيب ، بعديد من أبحاثه وملاحظاته حول الاسلام في الغرب ٠

بل لقد شارك في المؤتمرات التي عقدت لمسلمي أوربا للتعارف وجمع الشمل ، فضلا عن محاضراته في إذاعات فينا وجنيف عن الاسلام وحضارته ، وماثره على الحضارة الغربية ٠

□ وقد عرف الشرقيين في الفترة الأخيرة بالكاتبة الألمانية (انا مارى شميل) التي لم يترجم لها بعد أي أثر إلى العربية ، ودورها في الإنصاف لحضارة الاسلام والتعريف به في الغرب ، وإن كنا نعتذر عنه في وصف هؤلاء بالمستشرقين ، وإنما نحن نعتبرهم من العلماء المنصفين ، ونضمها إلى أمثال :

درابر وجوستاف لوبون ، وكارليل والدكتورة سجريد هونكة ، الذين اعترفوا بفضل الحضارة الاسلامية على الغرب ، وكاتبتنا هذه إنما يبدو أنها تعرفت على الاسلام عن طريق مسلمي الباكستان والهند ، فهي معجبة بالشاعر : إقبال ، والزعيم جناح ، وإن كانت لها دراسات عن ابن خلدون ، وفن الخط العربي ، والاسلام في شبه القارة الهندية الباكستانية ، وكذلك بحثها الممتاز عن الاسلام دين التوحيد والوحدة ، وإشارتها إلى أن القرآن هو المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم ٠

وهكذا تتواصل آثار الدكتور زكي علي ، ويمتد إنتاجه على مدى الأيام في قوة وحيوية ، آنس الله وحدته ، وأدام عليه الصحة والعافية ٠

أنور الجندي